الرحلة البرازيلية:
طائر يتكلم وزنوج سحرة وباهيا جورج أمادو

شاكر الأنباري

البرازيل: أرض السحر، والماكومبا، وجورج امادو، وباهياه المشلوحة على المحيط. أرض الخلاسيين الذين يرقصون السامبا في كارنفالات ساميأولو وريوديجانيرو. ارض الأقنعة الأفريقية والتعاويذ السود، وخمرة القصب المقطر في حقول شاسعة تدعى السرتاو، يرعى فيها البقر والأحصنة والوعول، وتطير في أجماتها الببغاوات. أرض ثمارها من ذهب. في هذه البلاد سأرى المنابع الخفية لما سمي بروايات الواقعية السحرية. وسأسمع الشعر النابض بمعاناة الشعوب. هكذا حدثت نفسي ونحن نحط في مطار ساميأولو، بعد رحلة عجائبية تلعب على الزمن وحركة الشمس.

استغرقت رحلتنا من الدنمارك الى البرازيل حوالي عشرين ساعة. اقلعت بنا الطائرة في السابعة مساء وأفقنا على شمس البرازيل صباحا، مما يعني ان الزمن الحسابي يفترض ان لا يزيد على ست عشرة ساعة، فكيف حصل الأمر؟ سافرنا مع الشمس، لاحقناها عبر سماء غائمة تنسدل على اوربا، غير انها راحت تشف وتشف فوق المحيط، لتصبح صحراء من الاستبرق، فوق سواحل باهيا المزروعة بسرطانات المحيط وخلاخيل الخلاسيات. خرجنا اذا من خارطة الزمن البشري ما يقرب الأربع ساعات. كان الوقت في البرازيل هو الصيف، لقد عشنا خلال عشرين ساعة فقط فصلين ارضيين. هناك ثلج وضباب، وهنا ثمار الباباي والجوافة وطائر البنتي في. سأرى المياه الجوفية لروايات اميركا اللاتينية، وألتقي سحرها وغرائبها وبشرها المعبئين بالثورات والرومانس وقصص الزنوج وحضارات ما قبل كولومبس. سأتنفس هواء الجزء الغربي من عالمنا، الجزء الذي كان ذات مرة جنة للهنود الحمر، وصار بعد اقل من قرن، مقبرة حوت جثمان اكثر من خمسين مليون هندي احمر، واختفت بعدها حضارات المايا والازتك والإمبراطوريات التي تعبد الشمس وتضحي بقلوب البشر قربانا للآلهة.

الهواء سلس، لا يشبه هواء آسيا وأوربا، فيه عطر الغابات الامازونية، كان يلعب بالفراش المداري المبقع الاجنحة، بين اغصان القصب وأشجار المانكا. له نكهة الراقصات، وطلاوة التماثيل، وجمال الجداريات الفنية المبثوثة على الطرقات. في الساحات، وعلى ارصفة الطرق العريضة، اشجار لم اشاهد مثلها من قبل، ذات اوراق عريضة وسيقان طويلة، وتدلق ظلها على الزنوج والخلاسيين الذين يسيرون حاملين امتعتهم، غير عابئين بالسيارات او باصات النقل. سألت زوجتي عنهم فقالت انهم يبحثون عن الطعام. من اين يأتون ؟ قالت قدموا من الشمال، مشوا آلاف الكيلومترات نحو الجنوب، حيث المصانع والمهن وتجارة المخدرات والدعارة، وسرعان ما يستقرون في الفافيلا؟ قلت ماهي الفافيلا، فقالت انها مدن الصفيح التي تسور مدينة ساميأولو، لا يمكنك الدخول اليها حتى في وضح النهار، خاصة اذا كنت غريبا، او لست فقيرا مثل سكانها. تفاجئك سكين من هناك، او يد من هنا، تنتشل نقودك وحليك وحقائبك، حتى الشرطة تخشى الدخول اليها الا في حالات نادرة. هؤلاء اذن شخصيات جورج امادو المحشوون بالقصص والحكايات التي صادفوها اثناء مسيرهم في (دروب الجوع) للبحث عن الارض التي (ثمارها من ذهب).

طيور تعبر السماء ذات اشكال ملونة وتصدح بأصوات عجيبة، وكان ثمة طائر يتكلم، وببغاء تعطي الأوامر، وقط يأكل غطاء المائدة، وكلب يعابث السيدة. الى اي جنس ينتسب اولئك البشر؟ سألت نفسي ورحت ادقق في الملامح، كي اقتطف توصيفا خاصا للشخص البرازيلي، وكانت النتيجة مذهلة: لم تكن هناك اية ملامح موحدة بينهم، فالبرازيل مغطس للاجناس والحصيلة خلطة لا توجد الا في هذا البلد القارة: انف زنجي وسط وجه اسكندنافي اشقر البشرة اصهب الشعر. شعر اصفر ينسدل على بشرة هندي احمر له مؤخرة تشبه مؤخرات الافارقة. شخص خلاسي يحمل عينين يابانيتين. جسد طويل بشعر اصفر مكزبر. خلطة الجسد متحت من جميع الاعراق، فالبلد يحتضن الهنود، سكان البلاد الاصليين، الى ان وفدت الشعوب الاوربية وجلبت معها الزنوج للعمل في الارض او للخدمة في البيوت. جاء اليابانيون متأخرين، ليحولوا قراهم التي قطنوها في الأرياف، الى مدن عصرية تحاكي جزرهم البعيدة التي وفدوا منها. اما الشعوب الانكلو اوربية فقد افتضت القارة، مدججة بالسلاح، حاملة انجيلها المطوب لخدمة الأسياد.

ما ان تلامس قدماك الارض التي ثمارها من ذهب، حتى تنطلق حولك الحكايات عن الماضي البعيد، عن الغزو الاوربي الاول والفظائع ضد الهنود. فالبرازيل من اقل البلدان في اميركا اللاتينية التي يوجد فيها هنود، اذ كانت الابادة شبه كاملة. ومن تبقى احتمى بغابات الامازون وحافظ على جنسه. الشعب الهندي في البرازيل لم يستسلم للغزاة، وفضل خوض مقاومة شرسة حتى ابيد دون رحمة. في كتاب مصور كان هناك مشهد لا ينسى، لقد كانوا يقطعون اجساد الهنود الحمر ويطعمونها للكلاب. لم يرض اي هندي بان يكون عبدا للغزاة، وهكذا تم تنظيف شبه القارة هذه من سكانها الأصليين، وتحولوا بعد قرون الى حكايات تقال للغرباء الباحثين في منجم التاريخ. اما الزنوج فقد حملوا تاريخهم معهم، مثل صندوق باندورا، اختلط السحر لديهم بطقوس عبادة المسيح والسيدة العذراء، وفي زمن ما صنعوا لهم مسيحا اسود، فهو اكثر اقناعا لدخول الدين الجديد. جلبوا معهم عباداتهم الرعوية واقنعتهم ورموزهم، وذات يوم رأيت شارعا كاملا وسط ساميأولو لا يبيع سوى الاقنعة: منحوتات خشبية تروي تاريخ شعوب القارة البعيدة، وقد تحولت الى حلم ضبابي وسط احلام شعوب البرازيل كافة. آلهات ومحاربون وحيوانات مخيفة وعيون غير بشرية واعضاء جنسية تعويذة للخصاء، وخرابيش محفورة بلغات بائدة وأوان مجسمة عليها معارك حدثت في زمن سعيد.

حين دخلت الدكاكين ضعت في هواجس البشرية وديناتها، ووجدت روحي منجذبة الى ذلك الانسان الضعيف، وهو يحاول تخليد روحه في منحوتة من خشب، او في دعاء اوتعويذة لطرد الأرواح الشريرة او مساعدة الخائفين. سألت نفسي لم يرجع المقهورون دائما الى الدين؟ وكيف يميز الواحد ما بين الفن والعبادة؟ وهل تعني كل تلك الرموز شيئا امام الأبنية العملاقة والأسواق العصرية الضخمة والمحلات بواجهاتها المذهبة؟ في بلد يرزح اكثر من خمسين مليون من سكانه تحت خط الفقر، وثمة عشرة ملايين طفل مشرد بلا مأوى. البرازيل لديها اكتفاء ذاتي في كل شيء، وهي من اكثر دول اميركا اللاتينية مديونية. وليس هناك بلد في العالم يتمتع مثله برخص الايدي العاملة.

كانت السماء زرقاء، الشمس المدارية تضيء ذهبا سائلا، الهواء رقيق ورائحة الخيزران تفح من حقول بعيدة. فجأة تعلقت عينا زوجتي في السماء، ووقفت متأملة، هي ابنة هذه الاصقاع. قالت علينا ايجاد مكان نحتمي به من المطر. لن تنفعنا تعاويذ الهنود ولا اقنعة الخلاسيين. قلت لها هل تمزحين؟ اين المطر، والشمس طالعة والسماء صافية؟ قالت انظر، فنظرت. ثمة بقعة سوداء في طرف المدينة، تسير فوق مدن الصفيح وابراج العمارات وتمثال يسوع الذي يوزع بركاته من فوق الجبل على هذه المدينة العملاقة. لم تمض سوى دقائق الا وصار المطر ينسكب على الرؤوس مثل قرب فالتة. لم ينزل على شكل قطرات انما انهمر انهمارِ شلال مرعب. سالت الشوارع بالمياه، وغنت الاسقف وفرغت الارصفة من مشاتها، وهدر الماء نحو مسالكه. قضينا ساعة، في الكافتيريا ننظر الى المطر والقطط ومزق الكارتون المنجرفة وبقايا الطعام الذي سرقه المطر من المشردين، وخلطة هذا الشعب المكتفي بعزلته، ثم اشرقت الشمس على حين غرة. ضوء ساحر ينسكب على المحيطات والغابات. ماهي الا دقائق حتى جفت الشوارع من جديد وعاد السائحون والاطفال المشردون وقطيع البشر الى الشوارع. انه المطر المداري، الذي تكلم عنه ماركيز وباراغاس يوسا وجورج امادو وايزابيل اللندي وبورخس. يأتي فجأة ويمضي فجأة، او يظل عالقا في السماء اياما. على الارصفة وفي زوايا الازقة، عند البيوت المهملة وفوق الطاولات المتروكة في العراء، تراكمت علب كارتونية ضخمة، قربها اغطية واطعمة واعقاب سجائر وقنان. كائنات بشرية ممصوصة الاجساد كانت تشبه الديدان. امر لفت بصري، ورأيته موجودا في اغلب الامكنة. انهم اطفال البرازيل الجدد. الاطفال الذين ولدوا في الشوارع، ولايملكون ابا او اما. يسرقون، يشتغلون في اللواطة وتجارة المخدرات، يمتهنون احط المهن، ويموتون وحيدين. هؤلاء اكثر ما يخشاهم السواح الاوربيون، اذ ان انقضاضهم على الانسان امر طبيعي، وهم يحملون السكاكين عادة. اطفال يكونون احيانا في الثامنة او العاشرة من عمرهم ويتحولون الى قتلة. وكان الحل الذي فكرت به حكومة البرازيل من اغرب الحلول. ليست الحكومة بالحقيقة انما الشرطة، فقد وجهت عليهم حملت واسعة من افرادها الشرسين تغتالهم ليلا، ليجمعوا مثل الكلاب الضالة، ويوضعوا في شباك عملاقة تحملها الحوامات ثم تلقي بجثثهم في البحر. كل ذلك حصل امام مرأى علماء الصواريخ الذين ينطلقون الى المجرات، وامام عيون السيدات المشغولات بموضات باريس، وإمام اعين الاساتذة الانيقين الذي يدرسون مادة التاريخ الخاصة بالشعوب المتخلفة. جرى كل ذلك تحت ذراعي تمثال يسوع الواقف فوق الجبل، وهو يتملى في ربوع هذه البلاد المعطرة بالقهوة والشوكولا وفوح خمرة البنكة المصنوعة من قصب السكر، وقد عطرت باليانسون.

رأيت جسورا تربط قمم الجبال بعضها الى بعض، وانفاقا تغوص في متاهات من البلور والجمشت والزمرد والعقيق. وليس بعيدا عن ذلك ببغاء تطلق اصواتا جارحة من على شجرة مانكا. رأيت بشرا رؤوسهم صهباء ومؤخراتهم ضيقة وانوفهم ذات سمات زنجية وعيونهم عيون يابانية. غابات على شكل باقات ورود وأحلام جرت احداثها قبل مئات السنين. حبيبات تلاشين من الذاكرة غير انهن ينبعثن في الرأس مثل النبع. قالت زوجتي الجوع في كل مكان هنا، وثمة طبقة صغيرة مرفهة تعيش عيشة الاباطرة. البرازيل اغنى بلد في العالم، لكن الجوع يطال حتى القطط احيانا. في البيت تمرح في الفناء الخلفي اكثر من عشرين قطة. تذهب الخادمة الى الجزار يوميا لتجلب لها وجبة مكونة من قلوب ورئات واكباد، تقطعها قطعا صغيرة، تلتهمها القطط بلمح البصر. كان ذلك الطقس يجري يوميا في الفناء الذي تعيش فيه ايضا سلحفاة عجوز وكلبان مدللان وغزالة مجلوبة من السهب. غابت الخادمة وجاعت القطط، وفي اقل من دقيقة هجمت علينا بغتة وراحت تعلك غطاء المائدة البلاستيكي. راودني احساس بان تلك القطط يمكن لها التهامي بأقل من ساعة، اذا لم تطعم قبل حلول المساء. ومن تلك القطط التقطت زوجتي الحامل فايروسها الذي اجهض ابنتها الاولى وملأ روحها بالحزن. وكان البيت مصنعا للحكي ورواية القصص عن غائبين منذ خمسين سنة وبحارة عادوا من المحيطات البعيدة ومناضلين غيبتهم زنزانات العسكر ونساء اغتصبن في الغابات، ورهبان اعتنقوا الماركسية وخلقوا حركة لاهوت التحرير بعد ان رأوا كل ذلك البؤس. حكي حكي حكي، لا يوجد شعب مثل هذا الشعب يعشق الحديث. شعب لا يتوقف عن الكلام والرقص، وكانت زوجتي مطحنة كلام في الباصات التي تنقلنا فيها، وعلى ساحل المحيط ، وفي الكنائس التي زرناها. تثرثر مع الرجال داخل الباص، وتسأل امرأة عن عنوان ما. تطلي شفتيها بالأحمر، وترتدي فستان سهرة فاقع الورود. تقرأ كتابا في الحديقة وتسمع صخب الموسيقى المجلجة عبر الشارع. تبكي من الفراغ، وتستحم بمتعة. ليلا، حين تهدأ صيحة الحياة، ترقد بسلام بين احضاني. يا لغرابة تلك الزوجة البرازيلية التي نامت وهي تحلم بالقطط وايقونات الكنائس والباربكيو. وكانت الكنيسة التي تاقت زوجتي لرؤيتها، كي تتذكر صباها وقصص حبها القديمة، قد بنيت من قبل المهاجرين البرتغاليين الأوائل، يتجسد فيها ذلك البذخ الكاثوليكي، والابهة الدينية. تقع على تلة تشرف على مدينة كابريوفا، مدينة زوجتي.

البرازيل

الكنيسة في البرازيل مركز جذب للجميع، للعباد والخطاة، للصبيان والبنات، للسلطة والمعارضة، تدور فيها وحولها قصص تشبه الخيال. لفت نظري رجل مقعد يزحف صاعدا التلة نحو باحة الكنيسة. كان يكرج على الارض ويبذل جهدا شاقا. تخيلته شخصا مليئا بالايمان والا ما اقدم على كل تلك المشقة كي يصل الكنيسة. الرجل يزحف الى الاعلى والنساء يدخلن الكنيسة مثل فراشات ملونة. زنوج وخلاسيون واوربيون ويابانيون. وحين وصل الرجل باب الكنيسة قبل الخشب ورسم علامة الصليب، ودوى تصفيق من الجميع. صار مركز الحضور. سألت زوجتي عن الأمر، فقالت انه ليس مقعدا، بل يؤدي نذرا فقط. قدم من قرية بعيدة زحفا كي يصلي هنا. عجبت لهذه الروح الايمانية بالدين. شعب البرازيل شعب متدين عموما لكنه منفتح على الحياة. يرقص، يحتسي الخمور، يمارس الجنس بحرية، لكنه لا ينسى الكنيسة، ملاذ الخطاة والمضطهدين والفقراء. من هنا ايضا انحازت قطاعات واسعة من الرهبان الى صفوف الفقراء وشكلوا احراجا للكنيسة الرسمية، اذ اصبح قسم منهم ثوارا ومناضلين، ايام الحكم العسكري. ومدينة كابريوفا ذات فراش ملون، اصفر وابيض واسود ومرقش. فراش بأحجام مختلفة، اكبرها الليلي الداكن اللون. الارض متموجة والتلال مغطاة بالعنب وقصب السكر. من قصب السكر ينتجون شراب البنكة، الذي يستمتع بشربه الزنوج والهنود. الاشجار دائمة الخضرة. والبشر يحبون الاطعمة.

مدينة كابريوفا تلتم على تلك الكنيسة التي بناها البرتغاليون، سكانها مولدون وافارقة ويابانيون وشقر من اصول جرمانية. الاكتظاظ في كل شبر من الأرض، والابيض كل من هو غير زنجي. عنكبوت سامة كادت ان تلتهمها كلاب البيت. الكلاب تنبح بأسى، الهدوء قلق لكنه كثيف. وقع قطرات المطر على ورق الأشجار كأنه خطى تدب في الظلام. وقع المطر مرعب، كما لو ان ثمة مخلوقا غامضا يتجول بين الشجر المعتم. الغصن ينحني حتى يلامس الارض، انه يحمل اكبر وردة في البستان. وفي الكارنفال آمنت بان كل ما هو غريب يمكن ان يتواجد في هذه الارض المصنوعة من روايات واقنعة وزنوج وغابات وورود مدارية وأمطار. كارنافال سانباولو كان اسطورة اميركا اللاتينية بحق. كان رواية بحد ذاته. ففي ليلة صيفية ماتعة، وسط ملعب المدينة العملاق، ارتدت الالعاب والرقصات والناس شكل اسطورة تحيل الواقع الى سحر وأقنعة. كانت الفرق تعبر على سيارات غريبة الهيئات. والراقصون عليها لهم سمات غير ارضية. تحولات الكائن البشري وهو يخوض في الخيال. فرق من السرتاو، تمثل رعي البقر، يمتطي الرعاة افراساً من الخشب ملتمعة بالأضواء. الباربكيو يرتفع دخانه في الهواء الطلق. فرق من باهيا، صيادوها متعتعون من السكر والجوع. فرق من ريو داجانيرو، مع عرض لأزياء قام به الخلاسيون المدهونو الجسد بزيت اللوز. ريش ونبال ودخان ينطلق عاليا كي يعانق الصواريخ الضوئية التي ترش سانباولو بألوان قوس قزح.

قالت زوجتي لا تحمل الكاميرا معك فربما يسرقها اللصوص. ضع نقودك في جيوب داخلية. انتبه الى ساعة يدك الثمينة. هذا التحذير يسمعه الغريب في كل مكان. الفقراء ينظرون بعين الريبة الى الأغنياء. والغني هو كل من يمتلك سقفا وعملا يوفر له لقمة العيش. البيوت تغطى نوافذها عادة بأعمدة غليظة من الحديد كي لا يتسلل اللصوص اليها. الجياع في كل مكان، والاغنياء يسفحون النقود على متعهم، محولين بيوتهم الى جنات محروسة بأشخاص أشداء. ثراء خرافي يراه المرء في تلك البيوت، لكنه مهدد بالسرقة او الثورة ليل نهار. الفقراء لا يشتركون مع الاغنياء الا بسحر الطقس وجمال الطبيعة. ياه كم هي مدلهمة الطلعة هذه الغيمة. انها تعدنا بسيول من المياه. ياه كم هي شفيفة هذه الغيمة سرعان ماتجرفها الريح. علب من الصلب والاسمنت. دخان اسود يعتلي زرقة السماء. ضوضاء تسيح حتى التلال. للمدينة العملاقة مرأى مقبرة. الفراشة الصغيرة تصعد هواء الصيف بحبل جناحيها الملونين. في الشتاء القادم سترقد جثتها قرب كومة من الاوراق. قرب الجثة بويضات صغيرة تضم فراش صيف آخر. سقطت الزهرة الذابلة فتلقفتها الارض بحنان، وليس بعيدا عن ذلك يقفون بخشوع، تثقلهم المساومة لشراء سيارة جديدة. انهم يحلمون بتصميم فريد للبيت. انهم يحضرون المحراث ويجمعون البذور. يفتحون حسابا في البنك، ويتضاجعون. خلف ستارة النافذة يقهقه الموت ساخرا. في البرازيل عندما لاتجد شيئا تفعله دع خطواتك تقودك الى اقرب حقل. ثلاثة كلاب تحرس البيت وامرأة مهجورة، والأشجار نظفت اغصانها من الاوراق الميتة. انها تعد نفسها لوليمة الشتاء. تذكرت كثيرا من روايات اميركا اللاتينية، وهي تصف هذه الطبيعة الساحرة وتفاصيلها النابضة بالشعر والموسيقى والنساء الحالمات. جاءت الى ذهني جغرافيا هذه القارة التي كنا نعدها سحرا وخيالا. امطار لا تتوقف عن الهطول طوال اسابيع، وسماء تمطر ازهارا على القرى البعيدة، ونساء يبعن الكلام في الحقول وعلى مشارف المعسكرات، وطاغية يطبخ وزيره بالصلصة مقدما اياه وجبة شهية لبقية الوزراء، وشلة صيادين يقضون الليل سكارى مع جثة رفيقهم، ليدفنوه عند الفجر في لجة المحيط.

ببغاوات تتكلم واسماك تأكل البشر وغابات خبأت حضارات لم تكتشف بعد. كنائس في قمم الجبال يرتادها الثوار واللصوص ومهربو الكوكا، وثيران تشوى كاملة بسفود من الحديد. عميان ينتظمون بجمعيات سرية واشباح تعود الى القرى بعد سنوات من الموت، ومؤامرات قذرة يخطط لها العسكر ورؤساء يحكمون مدى الحياة، يخلقون حولهم ستارا من الاساطير والحكايات.

ذلك وغيره كان معيار النقاد الاوربيين حين اطلقوا صفة الواقعية السحرية على تلك الروايات. لكن ما قرأناه لا يعدو ان يكون واقعا يتنفسه البشر في كل ثانية. وما منحه صفة السحر هو الحرية المطلقة التي وضعها الكتاب في كلماتهم وأفكارهم. شعوب غير محكومة بالماضي، تنظر الى الأرض اكثر مما تنظر الى السماء.

البرازيل تنتج ثقافة حية مستمدة من واقع حيوي متحرك هجين، غير معني بالماضي.

نظرة في المأزق الاخلاقي للمثقف

مؤيد سامي

يبدو انه لا يوجد مجتمع يخلو من المثقفين او من يقوم بدورهم؛ وللبرهنة على ذلك نستطيع ان نضع تعريفاً مقبولاً للمثقف يصلح معياراً في تفحص هذا الامر. فالمثقف هو شخص رأسماله افكاره.. أي ان العمل الذي يقوم به هو عمل فكري، ذهني بالدرجة الاولى ويقوم بانتاج سلع رمزية لمجتمعه لها علاقة بقيم وافكار يتبناها المجتمع.. لذلك تتعدد صوره وادواره واعماله عبر الازمات المختلفة والمجتمعات المختلفة إلا انه وبشكل ثابت يجد نفسه امام خيار محدد بـ (أما.. او..) وهو بما يتمتع به من قابلية ذهنية ومعرفية يواجه ضغطاً كبيراً من الجماعات المختلفة لكي يمثلها.. وغالباً ما تكون السلطات المركزية هي الاقدر من غيرها على توظيف المثقف للدفاع عن قيمها السائدة وتبريرها.. وذلك لأن المثقف كانسان قبل كل شيء معنى بالحصول على المكاسب المادية ايضاً.. وفي هذه النقطة غالباً ما يبدأ الاحساس بالمأزق الاخلاقي الذي يواجهه.. فقبل ان تكون السلطة ظالمة او عادلة، يكون السؤال هو هل ان على المثقف ان يعبر عن قيم فكرية وعقلية موضوعية ام عليه ان يدافع عن قيم غيره؟ وهنا نجد انفسنا قريبين جداً من مفهوم (المثقف العضوي) للمفكر الايطالي (انطونيو غرامشي) فالمثقف ينتمي إلى جماعة محددة ويدافع عن قيمها ويبرر اعمالها وهو قادر على تغيير مواقعه باستمرار بما يتناسب مع انتمائه.. وبالتالي فان الصورة المقابلة التي يطرحها المفكر (جوليان بندا) تبدو مغرقة في المثالية؛ فهو يرى في المثقف فرداً منعزلاً لا مستغلاً لا يعرف في الحق لومة لائم وهو لا يعترف بوجود قوة لا يمكن انتقادها.. هذه الصورة رغم جمالها لا وجود لها في الواقع ولكن يمكن القول ان المثقف المنتمي يحتاج دائماً إلى قدر كبير من النزاهة والموضوعية والشجاعة لقول الحق واظهار الحقيقة باعتبار ان موقف جماعته مهما كانت يجب ان لا يتعارض مع هذا العمل؛ والمثقف العضوي بهذا المعنى يكون امام المأزق الاخلاقي مجدداً. فالجماعات (حتى المعارضة) التي لابد من ان ينتهي اليها الافراد.. لا يمكن ان تنجو من تحيزات ومن تطرفات فيها مجانبة للحق احياناً..

ان المسؤولية الاخلاقية للمثقف يجب ان تجعله قادراً على تخطي التحيز والانتماء الضيق.. والانتماء للحق فذلك هو الموقف النموذجي الوحيد الذي يفترض ان الجميع متفقون عليه.. الا ان الواقع ليس بمثل هذا الوضوح، فالحق والحقيقة غالباً ما تكون نسبية وبشكل مبالغ فيه احياناً وامثلة التاريخ ليست قليلة فالكثير من العقول الالمانية وقفت ودافعت وتبنت الفكر النازي، رغم اننا ندرك الآن ان الادلة كلها تدحض الفكر النازي، والادلة من الوفرة بحيث يصعب علينا ان نصدق كيف ان هذه الادلة والحقائق الكثيرة عجزت او فشلت في تقديم او بناء معرفة صحيحة تمنع الالمان (ومثقفيهم خصوصاً) من السير في طريق الكارثة النازية.. وهذا ما يشير اليه المفكر الامريكي (نعوم تشومسكي) (بمشكلة اورويل)، حيث ان اول من اشار لها واوضحها هو الروائي المعروف (جورج اورويل) مؤلف رواية (١٩٨٤)، والتي يتنبأ فيها بسيادة الانظمة الشمولية في العالم.

ولعل اغرب ما في الامر ان تشخيص هذه المشكلة من قبل تشومسكي ومن محاولته الدائبة على حلها عبر اعماله السياسية والاقتصادية المختلفة.. ان كل هذه الجهود لم ولن تمنع من تكرر الموقف مرة بعد أخرى.. وان كان هذا لا يجب ان يمنع المثقف من القيام بدوره او بالاحرى القيام بواحد من واجباته وهو عرض اكبر قدر ممكن من الحقائق لكشف التناقض في المعرفة ومحاولة بناء معرفة صحيحة بالمقابل. وان كانت هناك علامات تحول واضحة وكبيرة إلا انها لا تتناسب ابداً مع قسوة وحشية الادلة الدامغة.. ولقد اشار إلى مثل هذا التحول الروائي المعروف (ميلان كونديرا) على لسان احد ابطال روايته (خفة الكائن التي لا تحتمل) ما معناه: لقد كان المثقفون الاوربيون يساندون اليهود لانهم ضحية في وقت ما، اما الآن فيبدو ان الضحية اصبحت شعب فلسطين.. وهذا بلا شك من نتاج انتفاضة الحجارة. أي بعبارة اخرى ان قوة الادلة استطاعت ان تبني ولو ببطء معرفة جديدة قائمة على ادلة كثيرة وان كان عدم التناسب ما زال واضحاً من حيث ضخامة الادلة المتوفرة وضآلة المعرفة الناتجة عنها.. ولعل الوجه الآخر لهذه المشكلة أي مشكلة اورويل هو ما نراه من كثرة وضخامة حجم المعرفة المتيسرة لدى البشر وقلة الاسس التي تقوم عليها هذه المعرفة وهذا ما اسماه تشومسكي بـ (مشكلة افلاطون). وهو ما دفعه إلى تفحص الاسس التي تقوم الانتماءات المسيطرة كاللغة والبشرة والجنس والطبقة والدين ليست هي الاهم في حياة الافراد دائماً، وهكذا نستطيع ان نرى الطريقة المعقدة التي تعمل بها آليات الهوية.

ان الهوية ليست نهائية فهي مستمرة التشكل كما ان المجتمع هو الذي يحدد انتماءات الافراد. ان الانتماءات الاكثر عرضة للخطر والتهديد هي التي تصبغ هوية الافراد ويتعرفون على انفسهم فيها. فهم يتحشدون بعضهم بعضاً لمواجهة الخطر ويصبح تأكيد الهوية بالتالي عملاً شجاعاً ومحرراً.. فيظهر قادة يضعون المراهم على الجروح ويعدون بالنصر والثأر والانتقام ويعدون العدة للحرب، والتي لا بد من ان تحدث، ولا يهم ما يحدث للآخرين فهم يستحقونه. وهكذا يتم ارتكاب الجرائم والاعتداء على الآخرين.

ان هذا المفهوم القبلي للهوية، يهيئ البشر لكي يتحولوا إلى قتلة بغض النظر عن لونهم او جنسهم او دينهم.. وذلك لأن اختزال الهوية إلى انتماء واحد يضع البشر في موقف متحيز ومتعصب ومتسلط واحياناً انتحاري ويحولهم في اغلب الاحيان إلى قتلة او انصار للقتلة. فالذين ينتمون إلى جماعتنا هم اهلنا وقد نسمح لانفسنا ان نكون طغاة اتجاههم، اما الآخرون فلا بد من ان يكونوا على خطأ ولا مجال لأن نسمع شكواهم وبالتالي فان من يقتلهم من جماعتنا لا يعد مجرماً بل بطلاً يدافع عن اهله.

ان هذا المفهوم الضيق للهوية يجب ان يتغير؛ فعندما تظهر حقائق جديدة، نكون بحاجة إلى اعادة النظر في مواقفنا وعاداتنا. وعندما تظهر في عصر العولمة الحاجة إلى مفهوم جديد للهوية فان على البشر ان يتمسكوا بانتماءاتهم المتعددة وعليهم ان يوفقوا بين حاجتهم للهوية وحاجتهم للانفتاح الصادق المجرد من العقد، على الثقافات المختلفة فاذا فشلوا في هذا المسعى فاننا سنكون في طريقنا لتشكيل افواج من المجانين، افواج من المنحرفين.

يقول معلوف: (من اجل التوجه صوب الآخر يجب ان تكون الذراعان مفتوحتين والرأس مرفوعاً، ولا نستطيع فتح ذراعينا إلا اذا كان رأسنا مرفوعاً).

المشكلة مع الآخر، بالنسبة للعالم العربي والاسلامي، هي انه هو مصدر الحداثة وبالتالي فان فشل مشاريع التحديث في هذه المنطقة من العالم، وانتشار التطرف الاصولي هو احد مظاهر الازمة في العلاقة مع الآخر وهذا هو موضوع الفصل الثاني من الكتاب (تحدي الحداثة).

يتساءل (امين معلوف) هل ان العالم العربي ودينه وثقافته لا يتوافق مع الحرية والديمقراطية والحقوق المدنية والحداثة؟

ان المؤلف يحاول ان يتوسط بين انتمائية في الاجابة، ويحاول ان يبتعد عن التبسيط. فالموضوع خطير. فليس ذوو الاحكام المسبقة المعادية للاسلام في الغرب على حق، كذلك الذين يدعون ان الدين على حقيقته ليس كذلك وهو بريء مما ينسب اليه من اعماله قتل وارهاب. يقول (معلوف): "عندما يرتكب عمل دميم باسم عقيدة ما، ايا كانت، لا تصبح هذه العقيدة مذنبة حتى لو كان من غير الممكن اعتبارها غريبة عن هذا الفعل. فباي حق استطيع ان اذكر مثلاً ان (طالبان افغانستان) لا علاقة لهم بالاسلام، وان (بول بوت) لا علاقة له بالماركسية، وان نظام (بينوشيت) لا علاقة له بالمسيحية".

ثم يقارن بين الاسلام والمسيحية وعلاقتهما بالديمقراطية، فيرى ان الديمقراطية نشأت في المجتمعات المسيحية الحديثة وتطورت رغم ان المسيحية لم تتمتع بروح التسامح طوال قرون من تاريخها، كما ان الديمقراطية لم تنشأ في المجتمعات الاسلامية رغم روح التسامح التي ميزت الاسلام في بداياته.

ويقول معلوف (لقد علمنا القرن العشرون انه لا توجد عقيدة تحريرية بذاتها، فكلها يمكن ان تنحرف، وكلها يمكن ان تشد، وكلها ايديها ملطخة بالدماء، الشيوعية والليبرالية والقومية وكل من الديانات الكبرى وحتى العلمانية لا احد يحتكر التعصب، وبالعكس لا احد يحتكر ما هو انساني).

ليس المطلوب من الانسان ان يتخلى عن انتماءاته بل المطلوب هو معاملته كمواطن كامل الحقوق مهما كانت معتقداته، ورغم انتمائه المسيحي يعلن معلوف ان المؤمن بنظره هو فقط من يؤمن بكرامة الكائن الانساني والباقي عليها بعض المعارف البشرية وخاصة مجال اللغة.. لعل ذلك يساعد على التعرف على امكانية انشاء معرفة صحيحة تناسب الادلة المتوفرة.. وبلا شك فان الحس الاخلاقي لتشومسكي يجعله يتفحص الاسس التي تقوم عليها المعرفة وذلك بغية الوصول إلى احكام صائبة حول ما يجري في العالم..

وان المأزق يتكرر مرة بعد اخرى، فعلى المثقف ان يظهر الحقائق باعتبارها الطريقة المنطقية الوحيدة لامكانية بناء معرفة صحيحة.. رغم ان بعض هذه الحقائق قد تتعارض مع انتمائه ومع مصالح جماعته.. ان اية محاولة لاخفاء الحقائق او حتى التلاعب بها يعتبر عملاً لا اخلاقياً يضع المثقف في مأزق نفسي ووجودي كبير.. وكما قلنا سابقاً ان الواقع لا يتمتع ببرود وهدوء الافكار المجردة.. فالمثقف لا يجد امامه خياراً سهلاً؛ فهو مهدد بعيشه وعائلته ومستقبله وربما حياته ايضاً، لذلك ليس غريباً ان نجد ان النموذج الواقعي للمثقف هو المثقف المنحاز لانتمائه ولمصالحه.. اما القلة القليلة الباقية فهي لا تجد امام التزامها الاخلاقي خياراً سوى السكوت او الانسحاب من الحياة الثقافية وهجرها إلى عوالم اخرى.. وتظل هناك امكانية ضئيلة لنوع من (اضعف الايمان) هو العمل الفكري والثقافي في مسائل اختصاصية شديدة التعقيد وتتطلب تطويراً في اساليب الخطاب وفي طرق تعبير المثقف عن نفسه وعن حسه الاخلاقي وعن انتماءاته..

ويبدو اننا لا نستطيع ان نتخلص نهائياً من ازدواجية النظرة إلى المثقف فهو عليه ان يوازي دائماً بين كونه فرداً مستقلاً يمتاز بقدرته على العمل والانتاج الفكري كما يرى وبين كونه لا يستطيع التخلص من انتماءاته، بل ان قدره ان يكون مؤدلجاً يدافع عن مصالح محددة كما يرى غرامشي.. وربما كانت التجارب او الصورة التي يذكرها ادوار سعيد في كتابه صور المثقف تقدم نوعاً من الحل الايجابي لهذه الازدواجية؛ فعلى المثقف ان يمتاز بحس نقدي سليم وبقدرة على ممارسة النقد دائماً على نفسه وافكاره ومسلماته اولاً ثم على كل الافكار والقوالب الجاهزة التي تحاول ان تصادر الحقيقة ومعرفتها وتحد من عقله كما يرى علي حرب في كتابه اوهام المثقف.. فهو معني اساساً بالانتباه إلى ان ما قد يعتبره مفاهيم لا يمكن المساس بها ما هي إلا اوهاماً لا تطرح على ارض الواقع الا نقائضها.

ليس على المثقف ان يمنح ولاءً نهائياً لجهة ما فليس ثمة ما لا يمكن توجيه النقد له.. ولعل في تجارب الانظمة الشمولية في اوربا امثلة ساطعة على ذلك.. وعليه ان يلتزم دائماً بقول الحقيقة وبالقدرة على ذلك وليس ذلك بالامر السهل بغض النظر عن الانظمة الاجتماعية والسياسية التي يحيا في ظلها المثقف. لذلك لا يمكن اختزال دور المثقف إلى مجرد اختصاصي منعزل يمارس عملاً فكرياً او ذهنياً لتحقيق مصلحة جهة ما، كما لا يجب اعطاء المثقف دوراً رسولياً يضعه فوق الآخرين بصفته يعرف ويمتلك الحقيقة ويستطيع ان يدل او يقود الآخرين اليها.. بل يبدو ان دور المثقف في الحقيقة هو ان يوضح انه ليست هناك مثل هذه الحقائق التي يمكن امتلاكها واعتبارها نهائية؛ بل ان سمة الحياة والواقع هي التغير والحركة سواء على الصعيد المادي ام الفكري.. فالمجتمعات عندما تتغير قيمها المادية فان قيمها الفكرية لن تظل ثابتة او جامدة؛ ومن يتصور هذه القدرة لافكاره فانه، وكما يرى (د. علي حرب) بحق، يجني عليها اولاً قبل ان يجني على نفسه والآخرين..

غرامشي

نعوم جومسكي